رائية ابن أبي ربيعة

لقد بحثنا لنعرف فيمن قيلت هذه القصيدة، ولكننا لم نصل بعد إلا إلى فروض بعضها يشبه اليقين. فمن الممكن أن تكون قيلت في عائشة بنت طلحة، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، فقد سهرت ليلة لهمٍّ ألمَّ بها فقالت: إن ابن أبي ربيعة لجاهل بليلتي هذه حيث يقول:

وأعجبها من عيشها ظلُّ غرفة ... وريَّان ملتف الحدائق أخضر

ووال كفاها كل شيء يهمها ... فليست لشيء آخر الليل تسهر

وقد قلنا إنه لو لم يعنها بهذه الإشارة لما رجعتها حين قهرها الحزن في هَدْأة الليل.

ولكن أستاذنا الدكتور طه يرى أنها إنما تمثلت بهذا الشعر لا أكثر ولا أقل. وفي الحق أن ما في القصيدة من الحوادث يُبعد أن تكون قيلت في عائشة بنت طلحة، وإن لم يبعد أن يكون الشاعر عناها ببعض أطراف الحديث، فقد نهاه قومها عن ذكرها في شعره وحمله وعيدهم على الاكتفاء بالتلميح.

وقد ذكر صاحب الأغاني أن عمر بن أبي ربيعة أنشد عبد الله بن عباس شعره في الثريا، فلما عدنا إلى حديث عمر مع ابن عباس وجدناه لم ينشده إلا قصيدتين: أولاهما داليته:

تشط غدًا دار جيراننا ... وللدار بعد غدٍ أبعدُ

وأخراهما رائيته:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر ... غداة غد أم رائح فمهجِّر

أما الدالية فقد ذكر أنه قالها في فاطمة بنت محمد بن الأشعث الكندية، ولم يقل فيمن قال الرائية: أفنحسبه قالها في الثريا؟ المقدمات ترجح ذلك، ولكنها لا تفيد اليقين.

وقد نص صاحب الأغاني في الجزء الرابع[1] أنه قالها في امرأة من قريش يقال لها: نُعم، كان كثيرًا لذكرها في شعره، وكانت تكنى أم بكر، وهي من بني جُمح. ويؤيد هذا أن الشاعر ذكر نُعمًا هذه في القصيدة، وإن لم يبعد أن يكون عنى غيرها في أثناء القصيد.

وقد حاولنا التثبت من نعم التي قيلت فيها هذه الرائية، فلم نجد غير أخبار مقتضبة: منها أن ابن أبي ربيعة وابن أبي عتيق كانا جالسين بفِناء الكعبة، فمرت بهما امرأة من آل أبي سفيان، فدعا عمر بكتاب فكتب إليها وكنى عن اسمها:

ألَمَّا بذات الخال فاستطلعا لنا ... على العهد باقٍ ودها أم تصرَّما

وقولا لها إن النوى أجنبيَّةٌ ... بنا وبكم قد خفت أن تتيمَّما[2]

فقال له ابن أبي عتيق: سبحان الله! ما تريد إلى امرأة مسلمة مُحرِمة أن تكتب إليها مثل هذا! قال: فكيف بما قد سيَّرته في الناس من قولي:

لقد حيَّيت نعمٌ إلينا بوجهها ... مساكن ما بين الوتائر والنقع[3]

ومن أجل ذات الخال أعملت ناقتي ... أكلِّفها سير الكلال مع الظلع[1]

---

(١) ص٣٦ طبع بولاق.

(٢) أجنبية: عصبية صعبة المراس.

(٣) الوتائر: موضع بين مكة والطائف -والنقع: موضع قرب مكة في جنبات الطائف، ذكره العرجي إذ يقول:

لحبني والبلاء لقيت ظهرا ... بأعلى النقع أخت بني تميم

مـــن أجـــل ذات الخـــال يـــوم لقيتهـــا بمنـــدفع الأخبـــاب أخـــضلني دمعـــي[٢]
ومـــن أجـــل ذات الخـــال آلـــف منـــزلًا أحـــــل بـــــه لا ذا صـــــديق ولا زرع
ومـــن أجـــل ذات الخـــال عـــدت كـــأنني مخـــامر داءٍ داخـــل أو أخـــو رِبـــع[٣]
ألمـــا بـــذات الخـــال أن مقامهـــا لـدى الباب زاد القلب صدعا على صدع
وأخـــرى لـــدى البيـــت العتيـــق نظرتهـــا إليهـــا تمـــشت في عظـــامي وفي ســـمعي

وحدث مصعب بن عبد الله أن عمر وافقها وهي تستلم الركن، فقرب منها، فلما رأته تأخرت وبعثت إليه جاريتها فقالت له: تقول لك ابنة عمك: إن هذا مقام لا بد منه كما ترى، وأنا أعلم أنك ستقول في موقفنا هذا، فلا تقولنَّ هُجرا[٤]. فأرسل إليها: لست أقول إلا خيرًا. ثم تعرَّض لها وهي ترمي الجمار، فأعرضت عنه واستترت فقال:

ديـــن هـــذا القلـــب مـــن نُعـــم بـــسقامٍ لـــيس كالـــسقَمِ
إن نُعـــمًا أقـــصدت رجـــلًا آمنًـــا بـــالخيف إذ ترمـــي

فلما أن رأت عيناي منها أسيل الخد من خلق عميم
حتى أترابها دوني عليها حنو العائدات على السقيم

(١) الكلال: الإعياء -الظلع: الغمز في المشي، أو هو العرج.

(٢) الأخباب: موضع قرب مكة، وقيل: بلد بجنب السوارقية من ديار بني سليم -وأخضله الدمع: بلله.

(٣) خامره الداء: لازمه -والربع -بالكسر-: الحمى تأخذ يوما وتدع يومين، ثم تجيء في اليوم الرابع.

(٤) الهجر -بالضم-: الفحش. ويقال: من أكثر أهجر، أي نطق بالهجر. ورماه بالهاجرات والمهجرات: بالفواحش. والهاجرات: الكلمات التي فيها فحش.

وحدث مصعب أيضًا أنه قيل لعمر بن أبي ربيعة: ما أحب شيء أصبته إليك؟ قال: بينا أنا في منزلي ذات ليلة، إذ طرقني رسول مصعب بن الزبير بكتابه يقول: إنه قد وقعت عندنا أثواب مما يشبهك، وقد بعثت بها إليك وبدنانير ومسك وطيب وبغلة. قال: فإذا بثياب من وشي وخز العراق لم أر مثلها قط، وأربعمائة دينار ومسك وطيب كثير وبغلة، فلما أصبحت لبست بعض تلك الثياب، وتطيبت، وأحرزت الدنانير وركبت البغلة، وأنا نشيط لا همَّ لي قد أحرزت نفقة سنتي، فما أفدت فائدة كانت أحبَّ إليَّ منها، وقلت في ذلك:

ألا أرسلت نعمٌ إلينا أن ائتنا ... فأحببْ بها من مُرسل متعصِّب[1]

فأرسلتُ أن لا أستطيع فأرسلت ... توكِّد أيمان الحبيب المؤنِّب

فقلت لجنادٍ خذ السيف واشتمل ... عليه بحزم وانظر الشمس تغرب

وأسرج لي الدَّهماء واعجل بممطري ... ولا يعلمن خلقٌ من الناس مذهبي[2]

وموعدنا البطحاء أو بطن يأجج ... أو الشِّعب ذو المسروح من بطن مغرب[3]

فلما التقينا سلمت وتبسمت ... وقالت مقال المعرض المتجنِّب

أمن أجل واش كاشح بنميمة ... مشى بيننا صدقته لم تكذِّب

قطعت حبال الوصل منا ومن يطع ... بذي وده قول المحرِّش يعتب[4]

فبات وسادي ثِنْيَ كفٌّ مخضَّبٍ ... معاودَ عذب لم يكدَّر بمشرب

---

(١) المتعصب: الذي شد العصابة وتقنع.

(٢) الدهماء: يريد بها الفرس. من الدهمة وهي السواد -والممطر والممطرة -بكسرهما- ثوب صوف يتوقى به من المطر.

(٣) البطحاء في الأصل المسيل الواسع فيه دقائق الحصى، وهو اسم لعدة مواضع منها بطحاء مكة - يأجج: مكان على ثمانية أميال من مكة.

(٤) المحرش: المحرض على الفساد.

إذا مِلت مالت كالكثيب رخيمةً منعَّمةً حُسّانة المتجلببِ[١]

وحدث أيضًا أن عمر بن أبي ربيعة بلغه أن نُعمًا اغتسلت في غدير، فنزل عليه ولم يزل يشرب منه حتى نضب. ولعل هذا الحديث من أظرف ما صاغ الخيال!

وقد روي أنها استقبلت عمر في المسجد الحرام، وفي يدها خلوق من خلوق المسجد[٢]، فمسحت به ثوبه ومضت وهي تضحك، فقال:

أدخل الله ربُّ موسى وعيسى جنة الخلد من ملاني خَلوقا
مسحته من كفها في قميصي حين طافت بالبيت مسحًا رفيقا
غضبتْ إن نظرتُ نحو نساءٍ ليس يعرفني سلكن طريقا
وأرى بينها وبين نساءٍ كنت أهذى بهن بَونًا سحيقًا[٣]

ومن جيد شعره في نعم هذه الأبيات:

أيها القلب لا أراك تُفيقُ طالما قد تعلقتك العَلوق
هل لك اليوم إن نأتْ أمُّ بكر وتولَّت إلى عزاءٍ طريقُ
من يكن من هوى حبيبٍ قريبًا فأنا النازح البعيد السحيقُ[٤]
قُدِّر الحب بيننا فالتقينا وكلانا إلى اللقاء مشوق
فالتقينا ولم نخف ما لقينا ليلة الخيف والمنى قد تسوق
وجرى بيننا فجدَّد وصلًا حُوَّلٌ قُلب اللسان رفيق
لا تظني أن التراسل والبذ لَ لكل النساء عندي يليق

(١) الحسانة بالضم الجميلة.
(٢) الخلوق: ضرب من الطيب.
(٣) بون سحيق: فرق بعيد.
(٤) ذكر صاحب الأغاني أن هذا البيت ليس من شعر عمر، بل أضافه المغنون.

إن مـــنهن للكرامـــة أهـــلًا والـــذي بيـــنهن بَـــوْنٌ ســـحيق

أسلفنا أن عمر أنشد ابن عباس رائيته، فلنذكر ما رواه صاحب الأغاني في ذلك، قال:

بينا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه؛ إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغين مورَّدين حتى دخل وجلس، فأقبل عليه ابن عباس فقال: أنشدنا فأنشده:

أمـــن آل نعـــم أنـــت غـــاد فمبكـــر غـــداة غـــد أم رائـــح فمهجِّـــر

حتى أتى على آخرها. فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال: الله يا ابن عباس، إنا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام، فتتثاقل عنا؛ ويأتيك غلام مُتْرَف من مترفي قريش فينشدك:

رأت رجـلًا أمـا إذا الـشمس عارضـت فيخـزى وأمـا بالعـشي فيخـسَرُ

فقال: ليس هكذا قال. قال: فكيف؟ قال: فقال: قال:

رأت رجـلًا أمـا إذا الـشمس عارضـت فيـضحى وأمـا بالعـشيِّ فيخـسر

فقال: ما أراك إلا وقد حفظت البيت! قال: أجل! وإن شئت أن أنشدك القصيدة أنشدتك إياها. قال: فإني أشاء، فأنشده القصيدة حتى أتى على آخرها - ولامه بعض أصحابه في حفظ هذه القصيدة فقال: إنا نستجيدها.

وكان بعد ذلك كثيرًا ما يقال: هل أحدث هذا المغيريُّ شيئًا بعدنا؟[1]

(١) حديث عمر مع ابن عباس روي من طرق مختلفة وعلى صور متعددة، وما أثبتناه هو أوضح صور ذلك الحديث.

ولم يقف أثر هذه القصيدة عند إعجاب ابن عباس، فقد أنشدها عمر طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري وهو راكب، فوقف وما زال شانقًا بغلته حتى كُتبت له. وكان جرير إذا أنشد شعر عمر بن أبي ربيعة قال: هذا شعر تهاميٌّ إذا أنجد وجد البرد، حتى أنشد أبياتًا من هذه القصيدة فقال: ما زال هذا القرشي يهذي حتى قال الشعر.

وقال الرشيد للأصمعي: أنشدني أحسن ما قيل في رجل قد لوَّحه السفر، فأنشده:

رأت رجلًا أما إذا الشمس عارضت ... فيضحى وأما بالعشيِّ فيخصرُ

أخا سفر جوَّاب أرض تقاذفت ... به فلوات فهو أشعث أغبر

قليلًا على ظهر المطية رحلهُ ... سوى ما نفى عنه الرداء المحبَّر

فقال الرشيد: أنا والله ذلك الرجل. وكان هذا بعقب قدومه من بلاد الروم. فهذا دليل على أن أولئك الرجال كانوا يرون أنفسهم وحوادثهم مصورة في هذه القصيدة.

وكان ابن أبي ربيعة نفسه يراها من خير شعره، فقد حجَّ في سنة من السنين، فلما انصرف من الحج لقي الوليد بن عبد الملك، وقد فُرش له في ظهر الكعبة وجلس، فجاءه فسلم عليه، وجلس إليه، فقال له: أنشدني شيئًا من شعرك. فقال: يا أمير المؤمنين، أنا شيخ كبير وقد تركت الشعر، ولي غلامان هما عندي بمنزلة الولد، وهما يرويان كل ما قلت وهما لك، قال: ائتني بهما. ففعل. فأنشداه هذه الرائية، فطرب الوليد واهتز لذلك، ولم يزالا ينشدانه حتى قام، فأجزل صلته ورد الغلامين إليه.

ونحسب أن ما أسلفناه يكفي للتمهيد لهذه القصيدة، فنلنقدمها للقارئ مصحوبة بالشرح والتفسير -قال:

أمـــن آل نُعـــم أنـــت غـــاد فمبكـــر ... غـــداةَ غـــدٍ أم رائـــحٌ فمهجِّـــرُ[١]

بحاجـــة نفـــس لم تقـــل في جوابهـــا ... فتُبلـــغ عـــذرًا والمقالـــة تُعـــذرُ[٢]

تهـيم إلى نعـم فـلا الـشمل جـامعٌ ... ولا الحبـل موصـول ولا القلـب مُقـصر

ولا قـرب نُعـم إن دنـت لـك نـافع ... ولا نأيهـا يُـسْلي ولا أنـت تـصبر

وأخـرى أتـت مـن دون نعـم ومثلهـا ... نهـى ذا النهـي لـو ترعـوي أو تفكـر[٣]

إذا زرت نعـمًا لم يـزل ذو قرابـة ... لهـا كلـما لاقيتهـا يتنمَّـرُ[٤]

عزيـــزٌ عليـــه أن أُلِمَّ ببيتهـــا ... يُـسرُّ لي الـشحناءَ والـبغض مظهـر[٥]

أَلِكنـي إليهـا بالـسلام فإنـه ... يُـشهَّر إلمـامي بهـا وينكَّـر[٦]

بآيـة مـا قالـت غـداة لقيتهـا ... بمـدفع أكنـانٍ أهـذا المـشهَّر[٧]

---

(١) غاد فمبكر: من الغدوة والبكرة وهما الوقت بين ظهور الفجر وطلوع الشمس. وفي القاموس: بكر عليه وإليه وفيه بكورًا، وبكَّر، وابتكر، وأبكر، وباكره: أتاه بكرة. وكل من بادر إلى شيء فقد أبكر إليه في أي وقت كان -والرائح: الذي يسير في الرواح؛ وهو العشي أو من الزوال إلى الليل. والمهجر الذي يسير في الهاجرة وهي شدة الحر.

(٢) تعذر: تظهر العذر.

(٣) النهي -بالضم-: العقل، ويكون جمع نهية -بالضم أيضًا- وهي العقل -وارعوى الرجل: أقصر عن غيِّه.

(٤) يتنمر: يغضب ويثور، والفعل في الأصل مأخوذ من التشبه بالنمر؛ لأنه لا يلقى إلا متنكرًا غضبان.

(٥) ألم ببيتها: أنزل به أو أمر عليه -والشحناء: العداوة، وشاحنة: باغضه.

(٦) ألكني إليها: أحمل إليها ألوكتي ومألكتي وهي الرسالة -ويشهر: يذاع، يقال شُهر بكذا واشتهز به واشتهر وشهره وشهَّره فهو مشهور وشهير ومشهر.

(٧) مدفع أكنان: اسم موضع، والمدفع في الأصل مجرى الماء حيث يندفع السيل ويجمع على مدافع، ومنه مدافع الريان في قول لبيد:

فمدافع الريان عرى رسمها ... خلقًا كما ضمن الوحي سلامها

أشارت بمدراها وقالت لأختها ... أهذا المغيريُّ الذي كان يُذكر[١]

أهذا الذي أطريتِ نعتًا فلم أكن ... وعيشك أنساه إلى يوم أُقْبَرُ[٢]

فقالت نعم لا شكَّ غيَّرَ لونَهُ ... سُرَى الليل يحيى نصه والتهجُّر[٣]

لئن كان إياه لقد حال بعدنا ... عن العهد والإنسان قد يتغيرُ

رأت رجلًا أما إذا الشمس عارضتْ ... فيضْحَى وأما بالعشيِّ فيخصَر[٤]

أخا سفر جواب أرض تقاذفت ... به فلواتٌ فهو أشعث أغبر[٥]

قليلٌ على ظهر المطية ظلُّهُ ... سوى ما نفى عنه الرداء المحبَّر[٦]

وأعجبها من عيشها ظل غُرفةٍ ... وريَّان ملتف الحدائق أخضر

ووَالٍ كفاها كل شيء يهمها ... فليست لشيء آخرَ الليل تسهر

***

وليلة ذي دَوران جَشَّمتني السُّرَى ... وقد يجشَم الهول المحب المغرَّرُ[٧]

---

(١) هكذا روى صاحب الأغاني الشطر الأول من هذا البيت، وفي الديوان «قفي فانظري أسماء هل تعرفينه» والظاهر أن رواية الأغاني أصح؛ إذ عرفها المتقدمون كذلك حيث قال جميز: امرأته طالق إن كانت أشارت إليه بمدراها إلا لتفقأ بها عينه إلخ.

(٢) الإطراء: حسن الثناء، والنعت: الوصف.

(٣) نص السري: إسراعه -والهجر: السير في الهاجرة وهي شدة الحر.

(٤) يضحي: تصيبه الشمس -ويخصر: يصيبه الخصر بالتحريك وهو البرد.

(٥) جواب أرض: من الجوب وهو القطع -والفلوات جمع فلاة، وهي الصحراء الواسعة.

(٦) المحبر: المحسن الجميل.

(٧) ذو دوران -بفتح فسكون-: موضع بين قديد والجحفة والتجشيم التكليف.

فبت رقيبًا للرفاق على شفًا ... أحاذر منهم من يطوف وأنظر[١]

إليهم متى يستمكن النوم منهمُ ... ولي مجلسٌ لولا اللُّبانة أوعر[٢]

وباتت قلوصي بالعَراء ورحلها ... لطارق ليل أو لمن جاء مُعوِر[٣]

وبت أناجي النفس أين خِباؤها ... وكيف لما آتي من الأمر مصدر[٤]

فدلَّ عليها القلبَ ريَّا عرفتها ... لها وهوى النفس الذي كاد يظهر[٥]

فلما فقدت الصوت منهم وأُطفئت ... مصابيحُ شبتْ بالعشاء وأنؤر[٦]

وغاب قُميرٌ كنت أهوى غيوبهُ ... وروح رُعيانٌ ونَوَّم سُمَّرُ[٧]

---

(١) على شفا: على حذر.

(٢) اللبانة: الحاجة -والأوعر: من الوعورة، وهي الخشونة.

(٣) القلوص: الناقة الفتية -والعراء: الفضاء -ومعور: ظاهر يقال: أعور الفارس إذا بدا منه موضع خلل للضرب.

(٤) المصدر يقابل المورد، وموارد الأمور: طرق الإقبال عليها. ومصادرها مسالك الانصراف عنها. والشاعر يذكر كيف بات حيران لا يدري كيف يصدر إذا قدر له الورود.

(٥) الريا: هي الريح البالغة التي رويت من الطيب. قال المتلمس:

فلو أن محمومًا بخيبر مدنفا ... تنشق رياها لأقلع صالبه

(٦) انؤر: جمع نار.

(٧) روح الرعيان عادوا إلى بيوتهم -ونوم: نام، والتضعيف للمبالغة لا للتعدية، ومثله قول ابن مقبل:

ثم نومن ونمنا ساعة ... خشع الطرف سجودًا في الخطم

والسمر: الذين يتحدثون بالليل.

وخُفِّض عني الصوت أقبلتِ مِشية الـ ... حُباب وشخصي خشية الحيِّ أزور[١]

فحييت إذ فاجأتها فتولَّهتْ ... وكادت بمخفوض التحية تجهر[٢]

وقالت وعضت بالبنان فضحتني ... وأنت امرؤٌ ميسور أمرك أعسر[٣]

أريتك إذ هُنَّا عليك ألم تخف ... وُقيت وحولي من عدوك حُضَّر

فوالله ما أدري أتعجيل حاجةٍ ... سرت بك أم قد نام من كنت تحذر

فقلت لها بل قادني الشوق والهوى ... إليك وما نفسٌ من الناس تشعر

فقالت وقد لانت وأفرخَ روعها ... كَلاَّكَ بحفظٍ ربك المتكبِّر[٤]

فأنت أبا الخطاب غير مُدافعٍ ... عليَّ أميرٌ ما مكثت مُؤَمَّرُ

فيا لك من ليل تقاصر طولهُ ... وما كان ليلي قبل ذلك يقْصُرُ

ويا لك من ملهىً هناك ومجلس ... لنا لم يكدره علينا مكدِّرُ

يمجُّ ذكيَّ المسك منها مفلجٌ ... نقيُّ الثنايا ذو غُروبٍ مؤشر[٥]

---

(١) الحباب كغراب الحية -وازور: مائل.

(٢) تولهت: قهرها الحزن.

(٣) تريد أن يسره عسر إذ كان هدفًا للرقباء.

(٤) أفرخ روعها: هدأ قلبها، والروع -بالضم- القلب، وفي أساس البلاغة للزمخشري وأفرخ روعك: أي خلا قلبك من الهم خلو البيضة من الفرخ. قال:

وقل للفؤاد إن نزا بك نزوة ... من الروع أفرخ أكثر الروع باطله

وهذا ظاهر وأما أفرخ روعك فيمن رواه بالفتح فوجهه أن يريد زوال ما يتوقعه المرتاع، وإذا زال ذلك انقلب الروع أمنًا.

(٥) مسك ذكي: ساطع الرائحة -وثغر وأفلج من الفلج بالتحريك وهو تباعد ما بين الأسنان -وغرب الثغر ماؤه وبريقه -ومؤشر: فيه أشر وهو حسنه وتحزيز أطرافه.

تـــراه إذا مـــا افـــترَّ عنـــه كأنـــهُ ... حـــصى بَـــرَدٍ أو أُقحـــوان منـــوَّر[١]

وترنـــو بعينيهـــا إليَّ كـــما رنـــا ... إلى ظبيـــة وســـط الخميلـــةُ جـــؤذر[٢]

-

فلـــما تقـــضى الليـــل إلا أقلـــهُ ... وكـــادت تـــوالي نجمـــه تتغـــور[٣]

أشـــارت بـــأن الحـــيَّ قـــد حـــان منـــهمُ ... هُبُـــوبٌ ولكـــن موعـــدٌ لـــك عـــزورُ[٤]

فـــما راعنـــي إلا مُنـــادٍ ترحَّلُـــوا ... وقـــد لاح معـــروفٌ مـــن الـــصبح أشـــقر[٥]

فلـــما رأت مـــن قـــد تنبـــه مـــنهمُ ... وأيقـــاظهم قالـــت أشر كيـــف تـــأمر

فقلـــت أُبـــاديهم فأمـــا أفـــوتهم ... وإمـــا ينـــال الـــسيف ثـــأرًا فيثـــأر[٦]

فقالـــت أتحقيقًـــا لمـــا قـــال كاشـــحٌ ... علينـــا وتـــصديقًا لمـــا كـــان يُـــؤْثَر[٧]

فـــإن كـــان مـــا لا بـــد منـــه فغيـــرُهُ ... مـــن الأمـــر أدنـــى للخفـــاء وأســـتر

---

(١) الأقحوان: زهر أبيض تشبه به الأسنان.

(٢) ترنو: تنظر في رقة وتكسر -والخميلة: الموضع الكثير الشجر -والجؤذر: هو ولد الظبية والبقرة الوحشية.

(٣) تتغور: تغيب.

(٤) عزور: ثنية بين مكة والمدينة، وقيل: جبل مقابل رضوى. وقد ورد ذكره في رائية له أخرى إذ يقول:

فلـــما أضاء الفجر عنا بدا لنا ... ذرى النخل والقصر الذي دون عزور

فقلت اعتزل زل الطريق فإننا ... متى نر تعرفنا العيون فنشهـــــر

(٥) الأشقر: هو الذي تعلو بياضه حمرة.

(٦) أباديهم: أجاهرهم بالعدوان.

(٧) الكاشح: المبغض -يؤثر: ينقل، ومنه الحديث المأثور.

أقـصُّ عـلى أختـيَّ بـدء حـديثنا ... ومـا لي مـن أن تعلـما مُتـأخَّر[١]

لعلهـما أن تطلبـا لـك مخرجـا ... وأن ترحُبـا سَربًـا بـما كنـت أحـصر[٢]

فقامـت كئيبًـا لـيس في وجههـا دمٌ ... مـن الحـزن تـذرى عـبرةٌ تتحـدَّر[٣]

فقامـت إليهـا حُرتـان عليـهما ... كـساءآن مـن خـزٍّ دِمقـسٌ وأخـضر[٤]

فقالـت لأختيهـا أعينـا عـلى فتـى ... أتـى زائـرًا والأمـر للأمـر يُقـدرُ

فأقبلتـا فارتاعتـا ثـم قالنـا ... أقـلِّي عليـك اللـوم فالخطـبُ أيـسرُ

يقـوم فيمـشي بيننـا متنكـرا ... فـلا سرُّنـا يفـشو ولا هـو يظهـر[٥]

فكـان مجنِّـي دونَ مـن كنـت أتقـي ... ثـلاث شـخوص كاعبـان ومعـصر[٦]

***

فلـما أجزنـا سـاحة الحـيّ قلـن لي ... ألم تتـق الأعـداء والليـل مقمـر[٧]

---

(١) متأخر: تأخر، فهو مصدر جاء على وزن اسم المفعول. قال دعبل:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس ... لي متأخر عنه ولا متقدم

(٢) السرب -بالفتح-: الطريق، ومنه أطلق الأسير وخلا سربه -وأحصر: من الحصر وهو الضيق، والمراد من رحب السرب هنا سعة الحيلة في العمل للخلاص.

(٣) كئيب: من الكآبة وهي الحزن.

(٤) الدمقس: الديباج.

(٥) يفشو: يذيع.

(٦) المجن والمجنة: الترس - والكاعب هي التي نهد ثديها - والمعصر: هي التي بلغت تمام الشباب وأدركت.

(٧) جاز الموضع وأجازه وجاوزه: سار فيه وخلفه.

وقلن أهذا دأبك الدهر سادرًا ... أما تستحي أو ترعوي أو تفكر[١]

إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا ... لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر[٢]

فآخر عهدٍ لي بها حين أعرضت ... ولاح لها خدٌّ نقيٌّ ومحجر

سوى أنني قد قلت يا نعم قولةً ... لها والعِتاق الأرحبيات تُزجَر[٣]

هنيئًا لأهل العامرية نشرها اللـ ... ـذيذ وريَّاها التي أتذكر[٤]

فقمت إلى عَنْسٍ مُخوَّن نيَّها ... سُرى الليل حتى لحمها متحسَّر[٥]

وحبسي على الحاجات حتى كأنها ... بقية لوح أو شِجار مؤشر[٦]

وماءٍ بموماةٍ قليلٍ أنيسُهُ ... بسباس لم يحدث به الصيف محضر[٧]

---

(١) السادر: الذي لا يهتم ولا يبالي ما صنع - وأرعوي الرجل: رجع عن غيه.

(٢) حرف أبو علي الفارسي هذا البيت فرواه هكذا:

وطرفك إما جئتنا فاحبسنه ... كما يحسبوا أن الهوى حيث تنظر

ليصح له أن يقول: إن «كما» أصلها «كيما» فحذفت الياء. فتعقبه ابن مالك فقال: هذا تكلف بل هي كاف التعليل وما الكافة، ونصب الفعل بها لشبهها بكي في المعنى وهذا البيت بعد تحريفه يذكر بقول جميل:

وطرفك إما جئتنا فاحفظنه ... فزيغ الهوى باد لمن يتبصر

وأعرض إذا لاقيت عينًا تخافها ... وظاهر ببغض إن ذلك أستر

راجع حرف الكاف في المغنى وحواشيه.

(٣) الأرحبيات: نسبة إلى أرحب. وهو فحل، أو قبيلة من همدان.

(٤) النشر الرائحة الطيبة ومثله الريا.

(٥) العنس: الناقة الصلبة القوية. والتي: الشحم. والمتحسر الذي أضواه السير.

(٦) الشجار: خشبة يضبب بها السرير، وعود يجعل في فم الجدى لئلا يرضع. والمؤشر: المرقق، وأشر الخشب المشار شقه.

(٧) الموماة: الفلاة -والبسابس جمع بسبس، وهو القفر الخالي.

بـــه مُبتنـــى للعنكبـــوت كأنـــه ... عـــلى طَـــرَف الأرجـــاء خـــامٌ منـــشَّر (١)

وردت ومـــا أدري أمـــا بعـــد مـــوردي ... مـــن الليـــل أم مـــا قـــد مـــضى منـــه أكثـــر

فقمـــت إلى مغـــلاة أرض كأنهـــا ... إذا التفتـــت مجنونـــة حـــين تنظـــر (٢)

تنـــازعني حرصًـــا عـــلى المـــاء رأســـها ... ومـــن دون مـــا تهـــوى قليـــبٌ مُعـــوَّر (٣)

محاولـــة للـــماء لـــولا زمامهـــا ... وجـــذبي لهـــا كـــادت مـــرارًا تكـــسر

فلـــما رأيـــت الـــضر منهـــا وأننـــي ... ببلـــدةِ أرض لـــيس فيهـــا مُعـــصَّر (٤)

قـــصرت لهـــا مـــن جانـــب الحـــوض منـــشأ ... جديـــدًا كقـــاب الـــشبر أو هـــو أصـــغر (٥)

إذا شرعـــت فيـــه فلـــيس لملتقـــى ... مـــشافرها منـــه قِـــدَى الكـــف مـــسْأَرُ (٦)

ولا دَلْـــو إلا القَعـــب كـــان رشـــاءَهُ ... إلى المـــاء نِـــسْعٌ والأديـــم المـــضفَّر (٧)

فـــسافت، ومـــا عافـــت ومـــا ردَّ شربهـــا ... عـــن الـــريِّ مطـــروق مـــن المـــاء أكـــدر (٨)

---

(١) الخام: الجلد لم يدبغ، أو لم يبالغ في دبغه.

(٢) مغلاة: قاطعة.

(٣) القليب: البئر قبل الطي، فإذا طويت فهي الطوى. والقليب في الأصل التراب المقلوب. والقليب المعور: المطموس، من قولهم: عور عين الركية إذا كبسها وأفسدها حتى نضب الماء. أو هو الممنوع، من قولهم: عورته عن الماء إذا منعته.

(٤) المعصر: الملجأ والمنجاة.

(٥) القاب: المقدار.

(٦) قدى الكف وقيده بالكسر: قدره -والمسأر: الباقي. وأسأره: أبقاه، من السؤر -بضم فسكون- وهو البقية والفضلة، ويقال للمرأة التي جاوزت الشباب ولم يهرمها الكبر: أن فيها لسؤرة. قال حميد بن ثور:

إزاء معاش ما تحل إزارها ... من الكيس فيها سؤرة وهي قاعد

والمشافر جمع مشفر، وهو للبعير كالشفة للإنسان. وشرعت الناقة في الماء: وردته، من الشريعة وهي مورد الشاربة.

(٧) القعب: القدح الضخم -والرشاء: الحبل. والنسع -بالكسر-: سير ينسج عريضًا على هيئة أعنة النعال تشد به الرحال، والقطعة منه نسعة. والأديم: الجلد.

(٨) سافت من السوف وهو الشم. يقال: سافه واستافه إذا شمه.